حمار السعدنى
بين حمار الحكيم وحمير يحيى حقى ! (*)

تراودنى من سنوات فكرة الكتابة عن ظاهرة حضور الحيوان فى كتابات الشرق والغرب.. فى التصانيف الأدبية وأشعار الشعراء، وفى كتابات القدامى والمحدثين.. بعضها اهتم بالقصص الدينى المبهر عن عجائب الحيوان والطير وأقاصيص وأحاديث النمل مع سليمان الذى علمه الله منطق الطير، أو الهدهد الذى تفقده وقال مالى لا أراه أم كان من الغائبين، وكيف أتاه من سبإ بنبإٍ يقين، وكيف امتحنه سليمان وأرسل إليهم بكتاب كريم.. وبعض الكتابات استخدم الحيوان والطير للرمز أو للتشويق، أو للمداعبة والتلطيف، أو لتمرير ما لا يمكن أن يمر فى فترات الاختناق والعسف والتضييق.. من أقدم الكتابات " كليلة ودمنه " الذى ترجمه ابن المقفع (٧٢٤ - ٧٥٩) من أكثر من ألف سنة عن بيدبا الفيلسوف الهندى، وشاع وذاع وطبعت منه مئات الطبعات بلغات الأرض.. فى تقدمته التى سطرها " بهنود بن سحوان " المعروف بعلى بن

---

* مجلة الهلال ٢٠٠٧/٧/١

الشاه الفارسى، ذكر لماذا صنف " بيدبا " كتابه لدبشليم الملك على هـــذا النحو : " فجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العـوام، وضناً بما ضمنه عن الطغـام (الأراذل)، وتنزيهـا للحكمـة وفنونهـا ومحاسنها وعيونها ".. جعله بيدبا على هذه الشاكلة ليكـون " ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة.. باطنه وظاهره كرسـم سائر الكتب التى برسم الحكمة : فصار الحيوان لهـوا، وما ينطـق بـه حكمة وأدبا " !.. يشتمل على الجد والهزل واللهـو والحكمـة والفلـسفة، ويتغيًا فى النهاية كشف كوامن الأشياء التى لا يراها العقل إلاّ بقادح له من الأدب والتجربة !

ولعل مولد الكاتب الإنجليزى الساخر " إريك بلير " الذى اشتهر باسم " جورج أورويل " فى الهند، هو الذى ألهمه كتابـه الـشهير " مزرعـة الحيوانات " Animal Farm ".. فى هذه الرواية التى أدارها على لسان الحيوانات، وظهرت سنة ١٩٤٦ وترجمت للعربية، طفق الكاتب يعبر رغم ميوله اليسارية المتطرفة عن خشيته على الحريـة الفرديـة مـن تـسلط السلطات الحاكمة عليها !..

إغراء الكتابة بلسان الحيوان جذب العقاد فكتب " مجمع الأحياء ". الذى أدار فيه البحث عن حقيقة الوجود وطبيعة القـوى المـسخرة لـه، وأجرى الحديث فيه على لسان الحياة والحيوانات.. اليمامة والثعلب والقرد والأسد.. بينما اختار طه حسين عنوان : " الثعبان " ليكتب عن طائفة مـن الناس، وعنوان : " حديث الأوز " لإيراد طرفة لجحا تمهد لحديثـه عـن مريدى نشر التعليم دون أن يهيئوا له ما يلزمه من استعدادات !

على أن " الحمار " من دون كل الحيوانات، يجيء على رأس قائمة المرويات والأقاصيص، وأيضا فى باب الاستعارات والكنايات.. جاء ذكر " الحمار " فى ستة مواضع بآيات القرآن الحكيم.. أشهرها تشبيه الحاملين للعقائد بغير فهم بأنهم :" كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا "، أو تشبيه المعرضين عنادًا عن التذكر : " كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ".. أو فى تقريع المختالين افتخارًا بقعقعات فارغة : " وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " !.

جاء الحمار فى الموروثات الشعبية والأمثال العامية، رمزا للغباء أو العناد أو الاستسلام لقاهرات المقادير.. " غلب حمارى " تعبيرًا عن فراغ الوفاض !.. " زىّ الحمار ما يجيش إلاّ بالنخس " مثلا لمن لا يطيع إلاّ بالشدة والوخز !.. " زىّ الحمار يحب يشيل التلاليس " تعبيرًا عن أثر الاعتياد فى تحمل ما لا يطاق !.. " زىّ حمير التراسة يتلكك على قولة هس " لضرب المثل عمن يلتمس المعاذير للتوقف عن العمل !.. " زىّ حمير العنب تشيله ولا تدوقه " تعبيرًا عمن يُسَخَّر فيما لايعود عليه بأى نفع !.. " زىّ حمير الغجر ينهقوا وهم نايمين على جنبهم ".. لضرب المثل على الاقتصار على الجلبة والصخب دون حركة ولا عمل !!

وأشهر أدبائنا فى اتخاذ الحمار مادة للدراسة، أو سبيلا للاستعارة والكناية : يحيى حقى وتوفيق الحكيم.. لحق بهما كاتبنا الساخر المبدع محمود السعدنى.

حـمار الحكـيم !

باكورة استخدام الحكيم للحمار عنوانًا واستعارةً، كانت فى مقالات " حمارى قال لـى ".. أول نشرهـا كـان عام (١٩٣٨)، وزادت فـى الطبعـات التالية، ثم كتب " حمار الحكيم " فى شكل روايـة أو لوحـة (١٩٤٠)، وصدرت فى إحدى الطبعات بعنوان " حمـارى الفيلـسوف " (١٩٧٥).. إلى هذا " الحمار" يهدى الحكيم روايته عنـه فيقـول : " إلـى صديقى الذى ولد ومات وما كلمنى لكنه.. علمنى ! ".. تبدو الاستعارة فى الكتاب من باب الفلفل والبهارات، أو من عناصر التشويق والجذب.. فـى تصدير اللوحـة - نقـلاً عـن أسطـورة قديمة - يتساءل حمار الحكـيم " توما " : " متى ينصف الزمان فأركب، فأنا جاهل بسيط، أمـا صـاحبى فجاهل مركب " ؟!. فقيل له : " وما الفرق بين الجاهل البسيط والجـاهل المركب ؟ ". فقال : " الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل، أما الجاهـل المركب فهو من يجهل أنه يجهل " !

اللوحة تدور حول " الجحش " الصغير الذى تورط توفيق الحكيم فى شرائه بثلاثين قرشا من قروى كان يسحبه على الإفريز بجوار جروبـى، أوقعه فى الصفقة السمسار بائع الصحف الذى قسره على الشراء، فلم يجد مفرًا من اصطحاب " الجحش " إلى اللوكاندة التى ينزل فيهـا.. مـن أول مشهد تتضح غاية الحكيم من حماره فى الإسقاط على ما يريـد !.. فـى رحلة ممتعة مع الحمار مليئة بالإسقاطات والمقارنات، يقارن الحكيم بـين مشهد الجحش الذى عاف اللبن وانصرف عن غادة هيفاء إلى مـرآة فـى الغرفة جعل يتأمل فيها نفسه، فى مقارنة ساخرة يشير الحكيم إلى ما فعلـه بحياته.. يقول : " أنا كذلك، انصرفت منذ عهود الصبا عن مباهج الحيـاة

التى تغرى الشبان والفتيات إلى تلك المرآة التى أرى فيها نفسى " !.. ولكننا لا نرى الحكيم يتأمل فيها كتأمل " نرسيس " المزهو بصورته فى المياه فى الأسطورة الإغريقية، بل يبحر فى تأملاته إبحار الغواص الباحث عن جوهر الحقيقة. الحمار يؤدى فى اللوحة التى رسمها الحكيم دور الفيلسوف الملهم، حتى إذا أتاه نعيه فى الختام، طفق يقول كالمخاطب نفسه : " لقد استطاع هذا الفيلسوف الصغير أن يبلغ قمة " الصفاء ".. تلك القمة التى طمع " جوته " فى أن يبلغها يومًا..استطاع هذا الصديق أن يرى الحياة والموت من ثقب واحد، وأن يرى الكائنات المتحركة والجامدة من عين واحدة. إن هذا الشيء الحقير الذى سميناه جحشا - هو فى نظر " الحقيقة العليا " مخلوق يثير الاحترام.. فى حين أن كثيرًا ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه، ولم يبصروا الغرور وهو يركب رؤوسهم، هم فى نظر الحقيقة العليا مخلوقات تثير السخرية ! نعم كنت أشعر شعورًا غامضًا أن حبى لهذا الجحش هو حب مقترن بشيء آخر غير العطف والإشفاق.. إنه التقدير والتبجيل.. أحمد الله أنه مات قبل أن يُركب ! "

استعارة " الحمار " وإناطته بأدوار وحوارات، وبمشاهد ومواقف، ظاهرة حاضرة فى كتابات توفيق الحكيم.. مع السنين أضاف مقالات ولوحات إلى كتابه : " حمارى قال لى "، وأعاد نشرها فى كتابه : " حمارى وعصاى والآخرون ". - وعاود استعارة الحمار فى قوالب مسرحية فى فصول مسرحيته " الحمير "..

فى كتابه : " حمارى قال لى "، مجموعة مقالات أو لوحات يدير فيها الحكيم عدة حوارات.. " حمارى والطوفان "، حمارى وهتلر، حمارى

وموسولينى، حمارى ومؤتمر الصلح، حمارى والسياسة، حمرى والقاضية، حمارى وحزب النساء، حمارى وعداوة المرأة، حمرى والنفاق.. يدرك المتأمل أن الحكيم جاد غير هازل فيما يورده من حوارات أو إسقاطات فى هذه المقالات، ولكنه لا يدع القارئ للتخبط، فيصدر الكتاب بحديث لرسول القرآن أنه عليه السلام قال : " إنى لأمزح ولا أقول إلاّ حقا ".. فى حوار " حمارى والطوفان " جعل الحكمة التى عزت على الإنسان تأتى على لسان الحمار.. لم تفلح أفضل العناصر التى اختيرت لسفينة نوح فى إصلاح ما غلب ويغلب على الآدميين من شر !.. فهل كان لابد لإيقاظهم من " طوفان " آخر من نوع جديد تمثل فى الحرب العالمية التى ركب فيها من انتصر على من هلك أو هزم، فهل صلحت بعدها حال البشرية ؟! لم تنقذ الدماء التى سالت - الإنسان من غروره وكبريائه وحماقاته ! الحكاية إذن ليست فى إبليس الذى تمسح الآدمى بأنه تعلق بذيل الحمار حتى يدخل سفينة نوح ليبقى فيها داعيا ومحرضا على الشر، وإلاّ فبأى ذيل تعلق إبليس لإسالة طوفان الدماء التى سالت فى الحرب العظمى ؟!. الحكمة على لسان " الحمار " أن الشر كامن فى الآدمى الذى حال كبرياؤه دون أن يهتدى فى تصديق وتسليم إلى الله. إلى النور العام والحب العام..حتى بات لا يستطيع أن يرى ما يجره إليه جشعه وعجرفته وأثرته العمياء من ويلات !

يحيى حقى وسعادته مع الحمير !

هل يعز على الآدمى أن يدرك ما أدركه الحمار ؟! يظل هذا السؤال يلح على خاطر القارئ وهو يتابع طرائف الحكيم فى حوارات الحمير،

ولكن أديبنا الفذ يحيى حقى يتعاطف تعاطفاً صريحًا مع الحمار فى دراسته الرائعة ضمن مجموعة " خليها على الله " : وجدت سعادتى مع الحمير. العنوان يحمل صدق مشاعر وأحاسيس الكاتب وتعاطفه وإنصافه لهذا الحيوان الذى طال ظلمه.. فى عام ١٩٦٢ كتب أحمد عباس صالح مقالا بالجمهورية عن يحيى حقى : " حبيب المنكسرين والبلهاء والمساكين ". لم يكن ليجاوز الحقيقة لو قال إنه أيضا حبيب الحمير ! لن يفارقك هذا الاقتناع وأنت تقرأ رائعته : " وجدت سعادتى مع الحمير ".. فى هذه القطعة الرائعة كتب يحيى حقى عن حمار الأجرة والحمار الملاكى، وعن درجات الحمير : حمير السبخ، وحمير الأجرة بمحطة السكة الحديد أكثر الحمير مكرًا.. ابن سوق محنك بالتجارب، وحمار الفلاح، وعلى رأس القائمة حمير الطبقة الأرستقراطية التى أوشكت الآن على الانقراض فى الريف. حمارهم " فاره قوى، منتصب الرقبة مرفوع الرأس، راقص الخطوة، أكحل العينين، له بردعة من جلد ثمين أو قطيفة مزينة، ولجام وركايب، أكله موفور وتعبه قليل.. يضن به صاحبه إلاّ على كبار الحكام " !.. أما " مدرسة الحمير " فشىء لا ندركه إدراكًا حقيقيًا إلاّ من دراسة يحيى حقى. هى مدرسة بالفعل، عجيبة مختلطة.. "من تلاميذها أيضا الخيول والبغال. من أصحابها من يطلبون تعليمها مشية الرهوان غرامًا بالأناقة والصبونة، ومن تلاميذها الحمير الأرستقراطية المطلوب أن تتعلم المشى كالرقص المكفول بأصول وقواعد تضمن بقاء الظهر كالبحر الهادئ رغم هدير الحركة الراقصة ". بالمدرسة قسم خارجى وآخر داخلى. فى القسم الخارجى تلاميذ أو حمير الجيران، ينصرفون فور تلقى الدرس، أما القسم الداخلى فللآتين من بعيد، مع كل تلميذ زاده وزواده من الفول والتبن

والدريس " !.. لا يتركك يحيى حقى دون أن يحدثك عن "حمير القاهرة " : الشعبية والأرستقراطية، فلها خصوصيتها، ولها - فى ذلك الأوان - مواقف انتظار بلافتات مثبتة على الأعمدة، بعضها لثلاثة أو أربعة أو ستة حسب حركة النقل بالمكان. يذكر منها يحيى حقى لافتة سور حديقة الأزبكية أمام مدخل فندق الكونتنتال، وموقف العتبة الخضراء الذى كان من زبائنه. أما " لصوص الحمير "، و" نكت الحمارة " فعالم آخر لايقل عنه طرافة " حمار السيرك " - وهو سلالة متطورة من حمار الحاوى، يختلط سحره ومواصفاته ومهاراته بسحر السيرك الذى كان جل متعة الناس فى النصف الأول من القرن الماضى !

بيد أن يحيى حقى المتعاطف مع الحمير لا يتركك دون أن يحدثك عن الطبيب البيطرى وجمعية الرفق بالحيوان التى كانت تعمل بهمة ونشاط جعلت الفلاحين يتفننون فى تحاشى مندوبها صاحب الرقابة الجادة الذى يفتش تحت البردعة ويملك سحب الحمار وعدم رده إلى صاحبه إلاّ بعد أن يتلقى العلاج !

على أن أبدع ما كتبه يحيى حقى، هو الغوص النفسى - ولا أبالغ - فى دراسة أغوار هذا الحيوان الطيب.. يقول عنه يحيى حقى : " لم أر كالحمار حيوانا تحس أنه أدرك أنه أُسقط فى يده، أنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته، وقدرة ظالمة، وقاده ذكاؤه العملى إلى الاقتناع بأن كل أمل قد مات، وأن لا فائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد، فوضع إرادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة فى حرز مكتوم فى قلبه، وأحنى رأسه وأذنيه وسبّل ضهره، واستسلم بلا قيد ولا شرط. قال لنفسه " فلتحسبن أن

الذى يعيش فى جلدك هـو حمار غيرك، ولتبق لى روحى لا يعلم بسرها إلا خالقى.. للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة، وللجمل عين ترقب الـدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم، وللحصان عين تنم عن الخيلاء، وللتـيس عين فيها العناد كله، وللجاموسة عين منطفئة، أما الحمار فإن عينه ذليلـة حزينة، تكاد تترقرق فيها الدموع. بل يخّيل إلىّ فى بعض الأحيان أنهـا (معمصة) كعيون الأطفال بعد بكاء، أهذا هو سر نهيقه ؟ ليس فى صـوت حيوان آخر مثل هذه الحُرقة والتفجع والمرارة، إنها صرخـة عـذاب واستغاثة وإشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهـواء ثم تذوب كأنها لم تكن. لا يريد إلاّ أن يفرغ من امتهانه ليخلو إلى نفـسه، ناعسا مطأطىء الرأس مسكينا تحت سقيفة فى مدخل السوق، إذا ربت على ظهره ورقبته أحسست كم هو طيب وديع وكم هو محتمـل لذلّـه بـصبر واستسلام ! "

حمار السعدنى !

حمار السعدنى يختلف استخداما وتقنية عن حمار الحكيم وحمير يحيى حقى، فلم يضع السعدنى حماره فى قوالب فنية روائية أو مسرحية كما فعل الحكيم فى روايته حمار الحكيم أو مسرحية الحميـر، ولا جعـل الحمـار ودنياه موضوعا لدراسته كما فعل يحيى حقى، وإنما استخدم الحمار وجعل له دولة للحمير، ليمضى سالما ساخرا فى جلد الذات باستعارة دور الحمار فى حـواره مـع البنت الفرنساوية " اللهلوبة ولا أرنب برى، الـشعنونة ولا قنفد فى برارى البصرة، المتحركة المتكركـرة المتـشنكرة ".. التـى التقاها فى باريس ودعاها إلى فنجان شاى فأقبلت فى النهاية بعـد إقبـال

وإدبار واقتربت وقد ظن أنها وقعت " فى غرام دباديب العبد لله ! " - ولكن لتسأله : " هل أنت مريض يامسكين يا عدمان " ؟!. يفتح السعدنى بهذه الحيلة باب الحوار نائبا عن دولة الحمير ومتحدثا بلسان أحد أفرادها فى مجموعة مقالاته الأولى التى ظهرت بعنوان : " حمار الشرق " فى آخر ثمانينيات وصدر تسعينيات القرن الماضى، ثم فى مقالاته التى صدرت بعنوان : " عودة الحمار ".. وهى عودة إلى ذات الحوارات مع البنت الفرنساوية عن كافة الموضوعات الانكشارية الحمقاء المحيرة فى دولة الحمير التى اتخذها حيلة لجلد الذات الشرقية أو العربية، متحدثا بلسان فرد منها ليمرر ما يريد من سخرية لاذعة يستحيل أن تمر بغير مقاضاة مالم يتخذ هذه الحيلة الذكية الأريبة تحت ستار أن ذاته نفسها بجلد ! السعدنى يسخر من نفسه فى الظاهر ويتقمص هو شخصيا دور الحمار ويتحدث بلسانه ساخرا أول ما يسخر من نفسه، ولكن ليصب جام أوصافه اللاذعة على الشرق أو العرب بعامة بأقطاره وحكامه ومحكوميه، بكتابه وفنانيه، بعامليه وعاطليه، بموظفيه ومهنييه وحرفييه، بسياساته واقتصادياته واجتماعياته، بأفكاره وسلوكياته، بنتف من الماضى الموجع، ونتف أعرض من الحاضر المرير المؤلم.. ناعياً ما نحن فيه من حمق وبلاهة وانكشارية جوفاء بلا معنى ولا طحن !

حمار الشرق !

فى كتابه " حمار الشرق " (كتاب اليوم أغسطس ١٩٩١)، طفق السعدنى - بالدور الذى تقمصه - يدير حواراته مع البنت الفرنساوية : اللهلوبة المتكركرة " - بقوارصه وسخرياته ولواذعه، يسخر مما يدور فى

دولته : دولة الحمير.. فيقول لها فى المقال الرابع : " لك هادا.. والشاويش حمدان " !.. فيرد عن نفسه اتهامها له بالمغالاة فيما يسوقه من مرويات، ويقول لها نافيا ما ظنته من مبالغة : " بالعكس بل أنا متواضع، والحقيقة أسوأ بكثير، فمثلا نحن نعيش فى رقعة أرض واحدة، ونتكلم لغة واحدة، ونعبد إلها واحدا، ومع ذلك فكل عشرة أمتار نحتاج إلى تأشيرة دخول، وتغيير عملة، وإقامة من دوائر الشرطة، وأحيانا نحتاج إلى كفيل. قطر واحد من أقطار العصر الحميرى يسمح لأبناء العصر الحميرى بالدخول دون تأشيرة دخول، ولكنه إذا أراد أن يخرج فعليه أن يحصل على تأشيرة خروج " !!!

حين تبلغ بالبنت الفرنساوية غاية الدهشة فى ختام المقال الأول : " سبحان الذى أعطى "، وينتابها الهلع من بعض مروياته عن التبلة المتفشية فى دولة الحمير، وتخشى عليه أن يلاحظه أحد فيبادر بخطفه وربما وضعوه فى متحف اللوفر أو حددوا إقامته فى مستشفى سان مارك،.. يبادر السعدنى مندوب دولة الحمير فيقول لها وهو ينفخ من شدة الغيظ.. " ياسبحان الواحد القهار، أقسم لك برأس جدى الشيخ معوض أن العصر الحميرى إياه قائم ومنتصب والحركة فيه الآن على قدم وساق، اخطفى رجلك أيتها الصبية إلى أى بلد فى العالم الثالث أو حيث تعيش أسرتنا وستجدين ألوف الحمير مثلى تأكل وتشرب وتعمل وتقبض وتسعى وتنام، وستجدين أغلبهم على الكراسى وفى المناصب، فمنهم زعماء ومنهم وزراء ومنهم علماء أيضا، وهذا هو العجب العجاب ".

تسأله البنت الفرنساوية الكركورة فى المقال الثالث : " أعلى مراحل الاستحمار "، كيف يكون حمارًا وعبقريا فى نفس الوقت، يبادر

فيقول لها : " إنها صفة على أية حال ليست مكتسبة ولكنها جاءتنى بالوراثة، فجدى الأول كان حمارا وأستاذا، وجدى السابق كان حمارا وعمدة، وجدى الأسبق كان حمارا وفلاحا، وستى يرحمها الله كانت حمارة وعالمة ".. فلما شهقت البنت الفرنساوية اللهلوبة من أن تكون جدته حمارة وعالمة من العلماء، يأخذها السعدنى إلى دنيا العوالم التى مفردها عالمة، وكل واحدة فيها " أشهر بكثير من مدام كورى وأغنى بكثير من مدام تاتشر، وأكثر انتشارا من مدام تحب بتنكر ليه " !.. لا يتركها المتحدث بلسان دولة الحمير دون أن يحدثها عن استخدامات " أفعل تفضيل " الشائعة فى دولة الحمير : فهذا البيت أفضل، وهذا الرجل أعظم، وهذا اليوم أخلد، وهذا أكرم وهذا أبخل وهذا أفظع وهذا أروع وعندنا سبهلله فى إطلاق الأوصاف والألقاب. فمثلا، أيامنا كلها خالدة، وخطب زعمائنا كلها تاريخية، وكل خطاب لا بد أن يكون له صدى فى العالمين " !

يمضى بنا السعدنى ضاحكا ساخرا، ومن نفسه أيضا، عبر " المجوس والجاموس "، و " أكلنا هو نفطنا من الورقة إلى الدوسرة إلى الطاجن ".. يتحدث عن قضايانا الفكرية التى نترك فيها الفكر إلى اللا فكر أو إلى الهامشيات والتوافه.. والخزعبلات أيضا !. حكم الذبابة ووجوب غمس جناحها الآخر إذا وقعت فى طعام، وأعاجيب شركات توظيف الأموال التى تضحك على الحمير فى دولة الحمير.. أما " فخامة الجنرال إلكتريك " !، فهى مدخل لتعلق أصحاب دولة الحمير بالألقاب..النشامى، والمجاهد، والمؤمن، والأوحد، والأخ المناضل.. مارشالات على قفا من يشيل.. لايسمون الأشياء بمسمياتها، فتصير الهزيمة نكسة، وتصبح الوكسة انتصارا.. ولكن لا بأس من استرداد بعض الكرامة أمام اللهلوبة

الفرنساوية.. نعم. " حمير.. ولكن كرماء ! - تيهنا بالصحراء وتغنينا بها هى والفيافى والجبانات بدل الخضرة والعمار.. من أعماق الصحراء التى بها نتيه، نخرج جماعات السماء.. لكل منها أمير ! تحكم بالكفر والإلحاد على من تشاء.. ثم يقسم حمار السعدنى على صاحبته العصفورة الفرنساوية ألاّ تنصرف قبل أن تسمع حديثه عن " النشوء والانحناء " !.. فهو أطرف وأيسر منالا من " الارتقاء ".. أما " الخطط والأهداف " فهى أيسر ما يكون.. " ياست يا خواجاية، فى بعض أجزاء من بلاد الحمير، كل من أخفى عينه وراء نظارة سوداء، وحمل فى يده حقيبة سامسونايت، ينادونه بلقب دكتور. وهذا النوع (المخطّط) هبر أكثر من خُمس دخل البترول فى صفقات مريبة وعجيبة ".. " أما التخطيط فليس فى الدنيا كلها تخطيط مثل الذى عندنا. أما عن المخططين، فكل الشعب يخطط، أحيانا على ورق، وأحيانا على حجر، وأحيانا على بلاط " !.. يؤيد حمار السعدنى مقولته للبنت الفرنساوية بالبرهان الساطع : " ادخلى أى دورة مياه فى بلاد العصر الحميرى، ستكتشفين أن كل الرواد تركوا خطوطا على الجدران والأبواب. انظرى إلى سيارة تمشى فى بلاد العصر الحميرى، ستجدين خطوطا ظاهرة عند المؤخرة (ياناس يا شر كفاية قر) و (ماتبصليش بعين رضية بص للفلوس المدفوعة فىّ) و(يا كايداهم !) و(مع السلامة يا أبو وردة !).. بيد أن السعدنى لا يحب أن يغفل الحديث عن أستاذه وحبيب عمره زكريا الحجاوى.. شهيد العبقرية الذى رحمه الله فمات وغادر العصر الحميرى، تاركًا الفنانة خضرة الشريفة تسرح وحدها فى الموالد والأسواق !

لا تحسب أننى حدثتك عن كل مافى " حمار الشرق " وإلاّ اضطررت لنقل الكتاب إليك.. فالكتاب كما قال فيه جمال الغيطانى : " أعنف هجائية ساخرة لأوضاعنا فى العالم العربى المعاصر، فى كتاب فريد هو وثيقة أدبية تضاف إلى فن السخرية والهجاء العربى.. كتبهُ فيلسوف أديب وشاعر وحكواتى ومتكلم عظيم.. إنه كتاب يضحك إلى حد البكاء " !

عودة الحمار !

كان من المحال أن يصبر السعدنى بروحه المتوثبة لأكثر من عشر سنوات بعد " حمار الشرق " فعاد ليقدم " عودة الحمار " (كتاب اليوم أبريل ٢٠٠١)، اعتبره السعدنى الجزء الثانى من " حمار الشرق ".. استأنف فيه الحديث مع البنت الفرنساوية العصفورة اللهلوبة.. عاد الحمار بسلامة الله مع " أم المعارك " التى احترق بنيرانها. عاد الحمار بلا هوية ولا ذاكرة يلعق جراحه ويهذى. يعجز عن فهم ما يجرى، ولا فهم الخراب والإفلاس وانشغال الكل بشراء الصواريخ ثم بشراء الصواريخ المضادة للصواريخ !. بيد أن البنت الفرنساوية لا تتركه لجراحه، فتعايره بالمبانى المتهالكة : " تتصورون أنكم أحفاد بناة الأهرام ومعابد أبو سمبل ؟! ياجماعة انكسفوا على دمكم.. حطوا فى عيونكم فص ملح. وهل معقول أنكم من صلب هؤلاء الذين شيدوا المبانى فعاشت ٧ آلاف سنة، بينما أنتم شيدتم المبانى فسقطت بعد أشهر ؟! حافظوا على جثث الموتى فعاشت آلاف السنين واحتفظت بجلدها وشعرها، ودفنتم موتاكم فلم يبق منهم شىء بعد عدة أشهر، حتى عظامهم انسحقت بفعل الرطوبة ورشح الماء " !.. طوى حمار السعدنى جوانحه على الإهانة البالغة، وكتم غيظه، ونهض

ليتحدث إلى البنت الفرنساوية التى عاجلته بحديث موجع عن خيبة دولة الحمير بتآمرها أولاً على امبراطوريتهم العثمانية، ثم بالوقوف فى الحرب العظمى مع الإنجليز المحتلين ضد الألمان، مع أن انتصار الألمان ربما أنهى مشكلة فلسطين، فيدير معها حمار السعدنى حوارا عن مبررات دولة الحمير فى رفض الفاشية، والانحياز إلى الديمقراطية، ولكنهما - حمار السعدنى والبنت الفرنساوية - لا يكادان يفرغان من هذا الجدل حتى ينتقلا إلى : " أعلى مراحل الاستحمار " !.. تقرعه البنت الفرنساوية بالخيبة القوية فى الذهاب بربطة المعلم إلى أفغانستان ومحاربة الإمبراطورية الشيوعية حتى سقطت، فصارت دولة الحمير بلا حماية ولا غطاء، وتحولت روسيا من موالية للعرب إلى موالية لإسرائيل ! أما " الحمير وجيش الخطاطبة " فحدث ولا حرج. يمضى حمار السعدنى مع هذا الفصل فى جلد الذات عبر معارك أصحاب الخطب الرنانة والعمل الأجوف !.. يفاجأ حمار السعدنى بالفرنساوية اللهلوبة تواجهه بحديث عن : " الأهل والأحفاد " !.. تقول له متهكمة : " دا اللى إنت شاطر فيه، أقول لكم إنه فى أحد أحيائكم المترامية الأطراف على أرض الله كان لديكم شاعر كان اسمه " البردونى " وصف بنى جنسكم بأنهم ظاهرة صوتية " !.. يتأرجح حمار السعدنى فى حديثه معها بين انسلات الأحفاد من الأصول، وبين تمسكهم بالجذور.. ولكنه يتحمل تقريع البنت الفرنساوية حتى يصل معها إلى : " جيش أمريكا وجيش رواندا " !.. يبدأ حمار السعدنى باتهام البنت الخواجاية بأنها حاقدة على دولة الحمير، تنتهز فرصة حوادث فردية لتؤسس عليها نظريات خنفشارية تتهم بها قبائل بنى حمير، وإلاّ فبماذا نسمى حادث تسليم " كارلوس ".. أليس حادثا فرديا ارتكبه فرد ؟!،

ولكن البنت الفرنساوية تعاجله بما حدث مع الاتحاد السوفيتى والهروب بإحدى طائراته الميج ٢١ وتسليمها لقاعدة جوية إسرائيلية ؟!.. ولكن حمار السعدنى لا يعدم الحيلة.. إنها أيضا حادثة فردية.. واحد خائن ! ولكن البنت الخواجاية اللهلوبة لا ترحمه، وتواجهه بإسلام مقاليد جيش التحرير من الاحتلال الإسرائيلى بإحدى دول بنى حمير - إلى قائد إنجليزى، الجنرال (أبوحنيك) وشهرته " جلوب " الذى انسحب بقواته فى حرب فلسطين كاشفًا الجيش المصرى ؟!.. لا يرحم الاضطراب الذى اعتلى حمار السعدنى من معاجلة البنت الفرنساوية له بقصة اليابانيين الغاضبين من ممارسات إسرائيل، الذين ركبوا طائرة " العال " الإسرائيلية إلى حيث هبطوا فى مطار " اللد " الدولى فى عملية انتحارية تعاطفا مع الحقوق العربية، فلما قبضت عليهم إسرائيل وسجنتهم طويلا ثم أفرجت عنهم، سلمتهم إلى دولة حميرية سرعان ما وضعتهم فى السجن ثم شحنتهم إلى دولة حميرية أخرى قامت بشحنهم إلى اليابان ليلقوا جزاء سنمار ؟!.. تتساءل البنت الفرنساوية : لماذا لم تترك الدول الحميرية لإسرائيل إنجاز هذه المهمة التى بدت بها الدول الحميرية وكأنها تقتص من المتعاطفين مع حقوقها المهضومة ؟!

السعدنى الموهوب ذو القلب الكبير

لست أريد أن أتوقف عن استعراض وقائع " جلد الذات " التى طفق السعدنى يستعرضها بسخريته اللاذعة، مرة على لسانه، ومرة على لسان البنت الفرنساوية.. فى حوار يثير الوجيعة ويحرك الأشجان، تختلط فيه البسمات والضحكات التى ينتزعها السعدنى بالآهات والعبرات.. اللافت

الذى لا تخطئه عين، أن السعدنى ليس فقط ساخراً عظيماً، ولكنه أيضا مثقف كبير، لديه مخزون هائل من التراكمات المعرفية، التراثية والتاريخية والأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وأن هذا المخزون الهائل، مع موهبته الفطرية، يتعانقان معا فى اختيار " القفشة " أو " الموضوع "، وفى سبك العبارة سبكا يثير مع البسمات المرتسمة على الشفاه، أحزانا ضاربة فى الأعماق !.. لم تفلح سنوات الظلم الطويل الذى عاناه، ولا أسوار المعتقلات، ولا أزمة المرض فى نفسه وفى ابنتيه، ولا حجب أو تقليص معاشه المستحق، ولا إجباره على التيه فى بقاع تمنت تطويعه بالمال والإغراءات إلى ما تريد، فأبى إلاّ ما يريده الكاتب الحر المؤمن برسالته المطوع لموهبته فى حمل هموم وطنه الذى ظل على الدوام فى أحضان هذا الساخر العظيم صاحب القلب الكبير !